صوت الضمير

وهذا باب يجدر بنا أن نفرد له فصلا على حدته.

فقد حدثتك عن الخوف من المؤثرات الخارجية التي يفزع لها الحيوان والإنسان، فيهرب منها طلبا للأمن والتماسا للنجاة. وهذا شئ مما ركبه الله في الفطرة حفظا للحياة، وهو أمر طبيعي. قال تعالى يصف خوف داود عليه السلام حين دخل عليه خصمان يطلبان الحكم بينهما بالحق : " وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف... ". وجاء في وصف أصحاب الكهف : " لو أطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا. "

ثم حدثتك عن مذهب فرويد الذي يجعل شخصية المرء ثلاثة أقسام : الأنا السفلى، والأنا العليا، والأنا التي تمثل واقع عمله، وتبرز شخصيته. وتحدثنا عن الخوف الناشئ من الأنا السفلى، وفصلنا الأمراض الناشئة عن ذلك.

وبقى أن نحدثك عن خوف الإنسان من الأنا العليا أو من الضمير. وفي تسميتنا الأنا الأعلى بالضمير بعض التجاوز

وقد نشأ الضمير لأن الإنسان يعيش في جماعة تقيده بأوضاع خاصة، وتطالبه بواجبات، في مقابل ما يحصل عليه من حماية وأمن. والناس بإزاء المجتمع أحد ثلاثة : إما ثائر يرفض أن يتقيد بالقيود أو يخضع للقوانين

ويساير التقاليد، وهؤلاء هم الخارجون على المجتمع، ويسمون بالمجرمين. وإما عاقل يعرف أن خيره وسعادته في مسايرة الجماعة والنزول على أوامرها والتأدب بآدابها، وهؤلاء هم الفضلاء. وإما مرغم على التخلق بأخلاق المجتمع خوفا من ألوان العقاب. وهؤلاء عندنا هم الأغلب، أو قل إن سائر الناس يخضعون للآداب الاجتماعية رهبة وخوفا.

ولا يغيب عن بالنا أن الضمير ينشأ في سن مبكرة حتى لينسى أغلبنا، أو جميعنا، فترة تكوينه. وذلك حين يدرب الطفل على الطاعة وعلى الآداب الاجتماعية التي يفرضها عليه أبوه وأمه والذين يقومون على تهذيبه، فيعلمونه السلوك الحسن ومبادئ الفضيلة التي يتواضعون عليها. هذه الفترة تمتد عادة حتى سن الخامسة، ولذلك كانت العناية بتربية الأطفال في هذه السن المبكرة ذات أثر عظيم في تكوين الأجيال وطبع الشعوب على الصفات الصالحة، كما تكون عظيمة الأثر في اتزان الشخصية وسلامة الأفراد.

قالوا : ويعمل على تكوين الضمير عدة أمور، أولها التجارب التي يتعرض لها الطفل، وأقواها في نفسه أثرا المخاطر والمخاوف، وهي التي تعلمه الحرص والحذر والتوفي. وإنه ليزج بنفسه في كل مأزق، ويتعرض لكل خطر، فهو يجرب النار ويلعب بالثقاب، ويقفز ويشب ويتسلق فيقع على أم رأسه ويصاب بالجروح والعاهات. وإنك لترى الرجل يخشى السباحة والخوض في ماء البحر، لأنه أوشك على الغرق في طفولته. وأعرف صديقا يرفض عبور النيل في قارب، فلما ألححت عليه في السؤال أخبرني أنه كاد أن يغرق في صباه.

والأمر الثاني في تكوين الضمير، أو الأنا الأعلى، التهديد الذي يناله الطفل من أهله، والعقاب الذي يوقع عليه، فهو يزجر ويضرب ويحرم من رغباته إذا عصى وخرج على الطاعة. فالخوف من العقوبة يكسب الطفل مستوى معينا من الأخلاق هو الذي نسميه فيما بعد الضمير.

والأمر الثالث التربية، فنحن نعلم الطفل أن السرقة أو الشراهة أو القذارة شر، وأن الرأفة أو الإحسان أو النظافة خير. ولا يثمر التعليم إلا إذا كان الطفل يحب معلمه.

والرابع محاكاة شخصية الأب أو الأم أو من يقوم على تربية الطفل ويتصل به، فيكتسب منه شخصيته، ويسلك كما يسلك.

فإذا تكوّن الضمير أصبح الطفل قادرا على أمور ثلاثة : إدراك نفسه أو الشعور بالذات، وضبط نفسه أو الوقوف في وجه الغرائز الدنيا، ونقد نفسه أو الحكم على النوازع والرغبات مما يؤدي إلى الشعور بالخجل أو اقتراف الذنب.

ويذهب برتراند رسل في كتابه " الظفر بالسعادة " إلى أن الضمير شعور نفساني يتركب من عدة أمور : الخوف من افتضاح السر، والخوف من نبذ المجتمع، وتعاليم الأم التي تبثها في الطفل. وهو يرى أن الإنسان ليس كاملا، وأنه ارتكب في خلال حياته ما يقتضي العقاب أو على الأقل الخجل. ولولا افتضاح السر لأمعن المرء في أداء أفعال يتجنب فعلها اتقاء هذا الخوف. ويخشى الإنسان إلى جانب افتضاح سره سخرية المجتمع منه والابتعاد عنه، كالتاجر الذي يغش في تجارته، فإنه يخاف إذا عرف أمره أن

ينصرف الناس عنه.

ونحن نعلم أن شيئا آخر يصرف الإنسان عن ارتكاب الشر وإيذاء الغير، خلاف افتضاح السر وبنذ المجتمع له، ذلك هو تأنيب الضمير. وعذاب الضمير أقسى من أي عذاب آخر لأنه لا يفارق صاحبه ليلا أو نهارا، ويبعث على الهم والقلق.

ومما يعمل على تكوين الضمير في الشرق التعاليم الدينية والإيمان بوجود الله، والاعتقاد مع وجود الله بحياة آخرة يبعث فيها البشر ويحاسبون فيها على أعمالهم، كما جاء في محكم التنزيل : " فأما من طغى، وآثر الحياة الدنيا، فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى ".

فإن قلت : ألا يعمل الدين على تكوين الضمير عند أهل الغرب، قلنا : لعلك تعلم أن الغربيين سرت بينهم في القرن التاسع عشر وفي خلال هذا القرن موجة شديدة من الإلحاد، ونرجو أن تعيد أحداث الحرب الأخيرة والكوارث التي تعرضت لها البشرية إليهم الإيمان والاعتقاد. ولهذا السبب أنكر علماؤهم حتى اليوم أن الضمير هو صوت الله، ونصوا على ذلك في كتبهم، كما جاء في كتاب برتراند رسل الذي ذكرت لك بعض رأيه.

ومع ذلك فقد قرأت لكاتب أمريكي هو ديل كارنيجي في كتابه " دع الهم " يصف الوسائل التي يحسن اتباعها لتجنب القلق الذي يستبد بالمرء، والهم الذي يتسلط عليه، فكان من جملة وسائله اتباع " الإسلام " – في

نظره – الذي ينادي بالمقدور، فلا داعي لخوف المرء من المستقبل، ودوام القلق على المال أو الصحة أو الولد، ما دام كل شئ بأمر الله.

قصة شاب :

وهذه قصة شاب أذكرها لمناسبتها الشديدة للخوف من الضمير. جاءني هذا الشاب يشكو عدة أعراض منها عدم القدرة على تركيز الذهن، وعدم فهم ما يقرأ، مع العلم أنه طالب بالبكالوريا ويرغب في النجاح. وكانت سنه حول العشرين، حسن البزة، من أسرة ريفية متوسطة الحال تسخو في الإنفاق عليه.

سألته عن أحواله الجنسية كيف يحل مشكلتها، فأجاب أنه ينفق بعض الوقت مع بنات الهوى. ثم تبينت في وجهه إشارة تدل على الاشمئزاز، فعلمت أن هذا التقزز متصل بعلاقته الجنسية. واعترف أنه يقدم على هذا العمل بدافع الرغبة الحيوانية والشهوة البهيمية، ولكنه يندم أشد الندم، ويؤنبه ضميره أشد التأنيب، ويعتقد أنه يرتكب إثما يعاقب عليه، فضلا عن قذارة الفعلة.

وقد تعلم هذا الشاب تعليما دينيا منذ صغره، فأصبح ضميره قائما على تعاليم الإسلام التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، فظهر لذلك الصراع بين الرغبة الجنسية أو الأنا السفلى من جهة، وبين الضمير أو الأنا العليا من جهة أخرى، فكان هذا الصراع علة اضطرابه.

فما علاج هذه الحالة، وكيف الخروج من هذا الصراع النفساني ؟

العلاج الذي نصحت به، والذي أنصح به دائما هو المبادرة بالزواج،

مهما تكن الظروف الاجتماعية أو الاقتصادية غير ملائمة.

وقد نادى برتراند رسل بعلاج آخر هو الصلة الحرة بين الفتيان والفتيات، وهو الأمر الواقع غالبا في أوربا اليوم، غير أن هذا العلاج يحمل الشر بين طياته، وهو سبيل فساد المجتمع، وهدم كيان الأسرة، ونذير انحلال الحضارة الغربية.

وإذا كنا لا نوافق " فرويد " على ما يذهب إليه من أن الأنا الأعلى يتكون من كبت الرغبات الجنسية فقط، فمما لا نزاع فيه أن الصلة الجنسية تشغل تفكير جميع الناس ذكورا وإناثا، وأن المجتمع والدين والتقاليد تفرض قيودا على هذه الصلة، وكثيرا ما يتحرج الآباء في تفهيم أبنائهم حقيقة هذه العلاقة، إلى درجة أن الرجل إذا تزوج شعر برهبة من زوجته حتى ليصاب بالضعف الجنسي، وإلى درجة أن الزوجة تخشى زوجها فتتمنع أو تصاب بما يعرف بالبرود الجنسي. وهذا شئ يتأصل بالتربية منذ الصغر في الضمير، ويعرف الخوف من هذا الجانب بالحياء. وقد درجت الأجيال المتعاقبة على تخويف البنت من العلاقة الجنسية.

وقد ظهرت منذ سنوات دعوة إلى تعليم التربية الجنسية حتى لا يفسد الضمير أو يختل، وذلك بالتبسط في تعليم علمي النبات والحيوان وما يشاهد في الطبيعة من لقاح وتزواج حتى تصبح المسألة الجنسية أمرا طبيعيا، ويتبدد ما يحوطها من رهبة وخوف.

قصة العفريت :

وهذه قصة أخرى تبين الخوف من الضمير، وكيف يسمع المرء أصواتا

تنهاه، وهو المعروف عند العامة باسم " الوشوشة ". وهي قصة رواها " هادفليد " في كتاب الصحة النفسية قال " أصيب المريض بالخوف من الأماكن المفتوحة، في شارع ريجنت من أعمال لندن، ذات يوم عند الغداء، بدون سبب ظاهر. وتبين من التحليل النفساني أن ضميره كان يؤنبه لأنه كان ينقطع عن عمله في وظيفته الحكومية مدة ربع ساعة يقضيها في مصالحه الخاصة. ولم يكن يصاب إلا حينما يرتكب شيئا يخل بالكرامة أو الشرف، وكان يسمع في الوقت نفسه صوتا باطنا يقول له " احذر ". ولم يكن ذلك الصوت في الواقع إلا صوت مربيته في الطفولة التي كانت تعلمه أن الشيطان موجود في ركن الغرفة، وأن ذلك العفريت على استعداد لعقاب الأولاد الأشقياء. ولقد لمح العفريت فعلا ذات مرة، في شخص الطاهية التي لبست ثوبا مفزعا، واتخذت هيئة منكرة، فصبغت وجهها بالفحم، حتى تبث في نفسه الرعب كي يقلع عن شقاوته. وامتثل بعد ذلك وأصبح جادا في سيرته، واكتسب صلابة في العزيمة وقوة في الإرادة. ولم تكن هذه الإرادة إلا ستارا رقيقا يخفى وراءه مخاوف الطفولة التي كانت في صراع دائم مع ضميره.

وسوف نحدثك حديث العفاريت والشياطين والخوف منها عند الكلام على مخاوف الشعوب.

الضمير في الأحلام :

وأكثر ما ينكشف لنا الخوف من الضمير في الأحلام، ولو أن ذلك يكون على سبيل الرمز، كما هي الحال عادة في الرؤى.

حكى أدلر في كتابه " ماذا تعني الحياة " أنه كان في أثناء الحرب العظمى رئيس مستشفى الأمراض العصبية للجنود. وكان يعهد إلى الجنود الذين لا يرى فيهم حماسة الحرب أعمالا يسيرة فيرفع بذلك عن كاهلهم عبئا عظيما. وجاء إليه ذات يوم جندي شديد البنية بادي الصحة، وكانت تعلوه الكآبة والانقباض، فلما فحصه لم يدر ماذا يعمل له، وتحرج أن يأمر يسحبه من الميدان، إذ كانت هذه الأوامر تعرض على ضابط أعلى منه. وأخيرا قال للجندي : " أنت عصبي ولكنك صحيح الجسم لا تشكو علة. وسوف أكل إليك عملا سهلا لا يحوجك إلى الذهاب إلى جبهة القتال. " فأجاب الجندي : " إنني طالب فقير ثم إني أعول أبواي من أجر الدروس الخصوصية. وإذا لم أتكسب مات أبواي جوعا ". وفكرت بعض الوقت وقلت في بالي إذا أمرت بعودته إلى بلدته ليشغل وظيفة كتابية فقد يغضب رئيسي ويرسله إلى الجبهة. وأخيرا استقر عزمي على أن أكتب له شهادة أقرر فيها صلاحه للعمل. فلما عدت إلى داري حلمت في الليل حلما مزعجا رأيت فيه أنني قاتل، وكنت أجري في الظلام في شوارع ضيقة أبحث عن ذلك الشخص الذي قتلته. ولم أستطع أن أتذكر ذلك الشخص، ولكني شعرت بأن حياتي قد انتهت ما دمت قد ارتكبت هذا القتل. وتسمرت في الحلم وتصببت عرقا.

فلما استيقظت أخذت أفكر في ذلك الذي قتلته. وإذا بالفكرة تعاودني عن ذلك الجندي، وهي أنني إذا لم آمر بإرساله في وظيفة كتابية فقد يرسلونه إلى الجبهة حيث يلقى حتفه.

فانظر إلى أي حد يخاف المرء ضميره حتى ليفزعه في المنام.

ومن الطريف أن أدلر يكمل هذه القصة بخاتمة لم يكن يتوقعها، إذ اتضح أن الشاب كان كاذبا في دعواه التي ذكرها عن التكسب من الدروس الخصوصية للإنفاق على والديه، وأنه كان على اتفاق مع الضابط الرئيس الذي أخذ منه رشوة ليحصل على تقرير الطبيب، فلما كتب ينصح بعمل سهل، أمر الضابط أن يعمل ستة شهور في أحد المكاتب.